



سؤال خطأ ولاشك ، لأنه سؤال موهم ، وإنجابتة لاشك ستكون كاذبة !

فالذين يقيسون أعمارهم بالسنين والشهور والأيام مخطئون ، لأنهم قد قضوا معظمها فيما لا قيمة حقيقية له كالنوم وال حاجات الضرورية للحياة تلك التي لا تضيف لنا شيئاً يذكر ..

وهم مخطئون لأن أعمار الناس إنما تفاس يقيمتها لا بعدها ، وقيمة كل أمرٍ ما أنجز ، وما حقق ..

وهم كذلك مخطئون ، لأن الذي فات من الأعمار لستنا بقادرين على تغيير شيء منه ، فلا نقدر على التعامل معه سوى بطريقتين هي السعادة ، أو الندم ! .. أما الفعل والأثر فمستحيل ..

فالواجب الحقيقى أن نحسب أعمارنا باعتبار ما سنعيشه منها في قادم الأيام لا ما سبق منها ، وبالطبع فهو غير معلوم .. هو فقط بين يدي الله !

والواجب كذلك أن نبراً من كل عمر مر بنا ونحن نضر أنفسنا ونودي بها إلى المهلكة من معصية الله سبحانه وترك عبادته ..

فلا عمر إلا عمراً سعدنا به يوم القيمة ، يقول عليه الصلاة والسلام : " ما قعد قومٌ مَقْعُدًا لم يذكروا فيه الله عَزَّ وَجَلَّ ، ويُصلُّوا على النَّبِيِّ ، إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِنْ دَخَلُوا الْجَنَّةَ لِلثَّوَابِ " السلسلة الصحيحة

إن الحرص الحقيقي على العمر إذن هو الحرص على اللحظات ألا تمر بغير عمل صالح ، و حرص على ألا تفاجئنا لحظات الموت ونحن خاليي الوفاض ، قال سبحانه " حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت " إنها الأزمة التي يقع فيها الناس، يغرهم الوقت ، ويأكلهم التسويف ، ويسرقهم التأجيل ، حتى يفجأهم المرض والموت .

الصالحون قوم انتبهوا من غفلتهم قبل الانتباه إلى فجعتهم ، وراقبوا لحظاتهم بينما هي تمر من بين ثنايا عقارب الساعة أمامهم ، فاستفادوا من كل لحظة وغنموا من كل نهار .

قال الحسن البصري رحمه الله قال: "أدركت أقواماً كان أحدهم أشح على عمره منه على درهمه" .

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: "إن الليل والنهر يعلمان فيك فاعمل فيهما" .

وقال الحسن البصري رحمه الله: "يا ابن آدم إنما أنت أيام فإذا ذهب يوم، ذهب بعضك" .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : "ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجله ولم يزدد فيه عملي" .

وقد نبهنا لمعنى الخسارة في الزمن والأوقات النبي صلى الله عليه وسلم ، فعن ابن عباس رضي الله عنهم قال: قال رسول الله صلی الله عليه وسلم : (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ) البخاري

ومغبون فيهما كثير من الناس: أي: ذو خسران فيهما كثير من الناس، والغبن أن يشتري بأضعاف الثمن أو يبيع بأقل من ثمن مثله.

إن السبب الكامن وراء هذا الغبن هو التعلق بزخرف الحياة ومتاعها ، والنظر إلى مكتسباتها ومنجزاتها الزلاء ، والغفلة عن الباقي ، فتبهمنا الأضواء اليومية ، وتلهينا المكتسبات المتكررة ، فينشغل أحدهنا في كم اكتسب وكم بنى وكم ادخر وكم اشتري ، و " لا يملأ عين ابن آدم إلا التراب " مسلم

سبب آخر لهذا الغبن هو نسيان لحظة المرض والقعود وعدم القدرة ، فالذاكر للحظة العجز سيحتاط لها وسيعمل من أجلها ، فيذكر صاحبها " أن عمله يكتب له إذا مرض كما كان يعمل صحيحا " ..

لكنه ينظر لما كان يعمل صحيحا سليما فلا يجد شيئا يذكر ولا يعثر على ما يمكن الاستناد عليه ، عندئذ يتعمق معنى الغبن ويعاظم شأن الخسارة ، فالمستعد للحظة عدم القدرة لن يكون مغبونا، إذ يبدو وكأنه قد ادخر فعليا عملا صالحا لساعة الحزن ولوقت العسرة ، كما يدخل أحدهنا الدرهم لوقت الفقر ، قال ابن الجوزي رحمه الله: "قد يكون الإنسان صحيحا ولا يكون متفرغا لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنّا ولا يكون صحيحا، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون" .

وأسوق لك ببعضها من مفاهيم السابقين الذين لم يغبنوا في أعمارهم ، وسابقوا وثابروا فأفحلوا واكتسبوا منها مقدار ما ينفعهم بعد فراقها ، نموذج مبسط لرؤيتهم وعملهم ومنهاجهم تجاه " عقارب " الساعة و " لدغاتها " نماذج كررنا ذكرها في سابقات

الأحاديث بشكل منفرد ، لكنها عند رؤيتها جمِيعاً تترك في النفس مقداراً كبيراً من استصغر النفس والتتبه لخطر الواقع
الذى نعيش

قال الرّقام: "سألت عبد الرحمن (ابن أبي حاتم) عن اتفاق كثرة السَّماع له، وسؤالاته لأبيه، فقال: ربما كان يأكل وأقرأ عليه، ويمشي وأقرأ عليه، ويدخل الخلاء وأقرأ عليه، ويدخل البيت في طلب شيء وأقرأ عليه.

وقال ابن عقيل عن نفسه: "إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لسانِي عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتِي وأنا مستظر، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطرها".

وقال أيضًا: "أَنَا أَقْصِرُ بِغَايَةِ جَهْدِي أَوْقَاتَ أَكْلِي حَتَّى أَخْتَارَ سَفَرَ الْكَعْكِ وَتَحْسِيهِ بِالْمَاءِ عَلَى الْخَبْزِ؛ لِأَجْلِ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ تَفَاوْتِ الْمُضْغَعِ، تَوْفِرًا عَلَى مطالعة أو تسطير فائدة لم أُدْرِكَهَا".

وقل موسى بن إسماعيل: "لو قلت لكم: إنِّي ما رأيت حماد بن سلمة ضاحكاً لصدقته، كان مشغولاً: إما أنْ يُحدث، أو يقرأ، أو يسبح، أو يصلّي، وقد قسم النهار على ذلك، قال يونس المؤدب: مات حماد بن سلمة وهو في الصلاة رحمه الله تعالى".

وقال الإمام الذهبي: كان الخطيب - البغدادي - يمشي وفي يده جزءٌ بطالعه.

وقال الرازى: والله إني لأتأسف في الفوات عن الاشتغال بالعلم في وقت الأكل، فإن الوقت والزمان عزيز.

وقال الإمام النووي: "بقيت سنتين لم أضع جنبي إلى الأرض، قال الذهبي: فسكن المدرسة الرواحية يتناول خبز المدرسة، فحفظ التنبية وقرأ ربع المذهب حفظاً في باقي السنة، وكان يقرأ كل يوم اثنى عشر درساً على مشايخه شرحاً وتصحیحاً.

وقال الإمام ابن القيم: "وحديثي شيخنا - ابن تيمية - قال: ابتدأني مرض، فقال لي الطبيب: إن مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض، فقلت له: لا أصبر على ذلك وأنا أحاكِمك إلى علمك: أليست النفس إذا فرحت وسررت قويت الطبيعة فدفعت المرض؟ فقال: بل، فقلت له: فإن نفسي تُسر بالعلم، فتقوى به الطبيعة، فأجد راحة، فقال: هذا خارج عالجنا" روضة المحبين

المصادر:

المسلم